فينومينولوجيا الكلام عند مرلو-بونتي

Phenomenology of speech accordin Merleau-Ponty

علام محمد*

كلية العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، الجزائر

****

تاريخ الإرسال:2019/01/21 **تاريخ القبول:2019/01/30** **تاريخ النشر: 31 جانفي 2019**

ملخص:

لعلّ من أكثر المسائل إحراجا في الفلسفة الفينومينولوجية، هي محاولتها –قهرا- وصف بعض الظواهر، التي تخرج عن نطاق الرؤية والحدس والمباشرية. وكون اللغة هي إحدى هذه الظواهر، فقد اهتم بها الدرس الفينومينولوجي أكثر من غيرها، ليس فقط لكونها موضوع وصف، بل أكثر من ذلك كونها حاملة لمادة الوصف وموضوعه. ومرلو-بونتي هو أحد الفينومينولوجيين، الذين كان لهم تصور خاص عن ظاهرة اللغة، ناقض فيه كل السابقين من لسانيين وفينومينولوجيين. وتكمن الخصوصية عند مرلو-بونتي في اتخاذه الكلام، وليس اللغة موضوعا للدرس اللساني.

كلمات مفتاحية: مرلو-بونتي، فينومينولوجيا، لغة، كلام، لسانيات.

Abstract :*A mong the great dilemmas of phenomenological philosophy, is his -forced- attempt to describe some phenomena that go out of the field of vision, intuition and directivity. And since language is one of this phenomena, the phenomenological research, not only as an object of description, but more than that, it involves the description language and its object. Merleau-Ponty is one of the phenomenologists who has a proper vision about language, that come against all the other linguistics and phenomenologists visions. The originality of Merleau-Ponty apearing in considering speech, and not language as the object of the linguistic lesson*

Keywords:*Merleau-Ponty, phenomenology, language, speech, linguistics.*

***طالب دكتوراه، مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها كلية العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، الجزائر**

- مقدمة:

قد يكون مفيدا التذكير بادئ الأمر بالمكانة المركزية، التي تكتسبها اللغة ليس فقط في المسائل النظرية المتعلقة بالثقافة، إنما في كونها قبل كلّ شيء حاملة لماهية الإنسان، كونه يُعرّف في بعض الفلسفات بالكائن الناطق أو الكائن الرامز (كاسيرير). فالوظيفة الأساسية التي تؤديها هذه الملكة المخصوصة بالإنسان هي كونها؛ ذاكرة تحمل تاريخه، ومدونة تعبّر عن خلجات بواطنه، ورابطا مباشرا بينه وبين عالمه. ولكن وعلى الرغم من كلّ هذه الفوائد الكثيرة، تبقى اللغة والكلام من أكبر الألغاز، التي يتعيّن على العلم والفلسفة كشف أغوارها وحلّ مشكلاتها. وربما تكون الفينومينولوجيا أكثر الفلسفات اهتماما باللغة، ليس فقط كونها وسيلة تحقّقها كعلم، ولكن وبدرجة أولى كونها تحدّيا يقف في وجه الوصف الفينومينولوجي، الذي يعدّ جوهر الفينومينولوجيا ومنهج تقوّمها.

ليس من العبث إذن التطرق إلى مسألة اللغة في فلسفة مرلو-بونتي، وذلك لأسباب عديدة نذكر أهمها. فكما هو معلوم أن الفينومينولوجيا كما صاغها إدموند هوسرل، تهدف بالدرجة الأولى إلى تجاوز العائق المنهجي، الذي يقف في وجه "العلوم الموضوعية، علوم الطبيعة وعلوم الروح، وكذلك العلوم الرياضية"،[1] التي يصفها بأنها معارف مفارقة للذات، وتستدعي منهجا مناسبا لتجاوز هذا العائق. وعلى إثر هذا الإشكال الأساسي خاض هوسرل مشروعه الفلسفي، الذي انتهى به كما نعلم إلى مشكلة الواحدية[2] Solipsisme، حين تبلغ الذات منتهى درجات العزل عبر الرد، وتتحوّل عبرها العلاقة بين الذات والعالم إلى مجرد أفكار محايثة للأنا المتعالي، لأن الأفكار بالنسبة إلى

[1] إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، تر: فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص33.

[2] Edmund HUSSERL, Méditations cartésiennes « introduction à la phénoménologie », tr : Gabrielle PEIFFER et Emmanuel LIVINAS, librairie philosophique J.Vrin, 1996, p148.

هوسرل هي وحدها المعطيات المطلقة الأولى.[3] وعلى خلفية هذا المطلب صاغ هوسرل أيضا قاعدته الأساسية "نحو الأشياء ذاتها"، التي من شأنها أن تكشف لنا عن أسرارها مباشرة عبر مفهوم "الحدس المعطي"،[4] الذي كان يأمل من ورائه تحقيق الاتصال الساذج (الغير مفكّر) والمباشر مع الأشياء. وهنا بالذات تبدأ المحنة الحقيقية للفينومينولوجيا، حين تكون مطالبة، ليس فقط بتحويل المعارف من مفارقة إلى محايثة والاحتفاظ بها، إنما وتحديدا عند محاولة وصفها أو التبليغ عنها.

من جهة أخرى، فإن التطرق إلى موضوع اللغة في فلسفة مرلو-بونتي ليس اختيارا اعتباطيا، بل حتمية منهجية يقرّ بها مرلو-بونتي نفسه؛ حيث أنه وبعد تمييزه للجسد كوحدة خاصة عن مفهوم الشيء العلمي (الجسد الموضوع) في فينومينولوجيا الإدراك، فإن مهمته التالية قد حددّها اكتشافه بأن كل الوظائف الخاصة بالجسد الحي، وحتى وظيفته الجنسية، تُخفي قصدية وقدرة على الدلالة. وهو ما وجده محفزا لتجاوز الفرق التقليدي للذات وللشيء، من خلال وصف ظاهرة الكلام والفعل القصدي للدلالة[5]. وهذا الأمر في حدّ ذاته مؤشر قوي بالنسبة للباحث لترسيخ الاعتقاد بأن موضوع اللغة ليس موضوعا ثانويا في فلسفة مرلو-بونتي، إنما يتواشج بشدّة مع تحليله الفينومينولوجي للجسد، وبالتالي له مكانة خاصة ومهمة داخل مجمل أفكاره الفلسفية.[6]

---

[3] إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، المرجع نفسه، ص33.

[4] Edmund Husserl, Idées directrices pour une phénoménologie, traduit par Paul Ricœur, Gallimard, 1995, §24.

[5] مبحث "الجسد كعبارة والكلام" الذي يخوض فيه مرلو-بونتي في موضوع اللغة لأول مرة في فينومينولوجيا الإدراك، هو مبحث تابع للقسم الأول الذي يحمل عنوان "الجسد". أنظر:

Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Gallimard, Paris, 1945, Édition numérique réalisée le 3 avril 2015 à Chicoutimi, Ville de Saguenay, Québec, p221.

[6] Keiichi Yahata. La problématique de l'expression dans la philosophie de Maurice Merleau-

Ponty. Thèse de doctorat en Philosophie, Université de Toulouse le Mirail - Toulouse II, France, 2012, p17. En ligne https://tel.archives-ouvertes.fr.

وعطفا على فكرة ضرورة ربط موضوع اللغة مع الجسد، الذي أعطى لفينومينولوجيا مرلو-بونتي صبغة خاصة عبر مفهوم القصدية الجسدية، فلا شكّ أن للغة تصورها الخاص هي الأخرى، يتماشى وهذا الطرح الجديد. وهو الأمر الذي يحتّم علينا في هذا التحليل، الخوض في مقارنة بين تصوّر كلّ من هوسرل ومرلو-بونتي من جهة، -كممثلان للتيار الفينومينولوجي- وبينهما وبين فردنان دو سوسير، عالِم اللسانيات المعاصرة والمرجع الأول لكل دراسة لسانية. حتى تتّضح بكل جلاء الفروقات الموجودة، والإضافات المحصّلة، والتحوّلات المتتالية. وعلى هذا الأساس يمكن صوغ بعض التساؤلات، التي سنتّخذها دليلا لتحليل هذا الموضوع. فما هو إذن تصوّر مرلو- بونتي حول اللغة؟ وما هو دورها ووظيفتها وقيمتها داخل المنهج الفينومينولوجي؟ وهل استطاع عبر تصوّره الخاص أن يتجاوز إحراجات العلاقة التقليدية بين الفكر والواقع واللغة؟

اللغة في الدرس اللساني المعاصر: لقد صار من المعلوم اليوم لدى متتبع الدرس اللساني، قيمة وأثر "محاضرات في الألسنية العامة" لعالِم اللغة فردينان دو سوسير (1857-1913)،[7] الذي استطاع أن يحوّل الاهتمام باللغة، من بعده التأملي المجرّد إلى الدراسة العلمية الصارمة، وذلك بتطبيقه المنهج الوصفي؛ فمعه فقط تمّ التمييز بين اللغة واللسان، بحيث جعل الأولى جزءا مهما من الثاني. فاللّغة في الآن نفسه، نتاج اجتماعي لملكة اللسان، وجملة تواضعات ضرورية يتبناها الجسد الاجتماعي لتسهيل ممارسة هذه الملكة لدى الأفراد.[8] وقد أدى هذا التمييز إلى فصل ما هو اجتماعي عن ما هو فردي، ما هو جوهري عن ما هو ثانوي وعرضي[9]. وعلى إثر هذا التقسيم العام اتضح له أن اللّغة ليست وظيفة للفرد الناطق بها، وإنما نتاج يكتسبه الفرد انفعاليا، وهي لا

[7] كتاب محاضرات في الألسنية العامة هو بمثابة الثورة الكوبرنيكية في مجال الدراسات اللغوية، جمعه ونشره طلبة دو سوسير سنة 1916، أي بعد ثلاث سنوات من وفاته، وهو يحمل هذه القيمة لأنه حوّل طريقة البحث في اللغة من تأملية إلى طريقة علمية. أنظر:

Ferdinand de SAUSSURE, Cours de linguistique générale, présenté par Dalila Morsly, éd : ENAG, 3eme édition, Algérie, 2004.

[8] Ibid., p23.

[9] Ibid., p30.

تفترض تصميما مسبقا، كما أن التفكير لا يتدخل فيها إلا كنشاط تصنيفي.[10] وبالمقابل فقد أسند الكلام لإرادة الفرد وذكائه، وجعله فعلا مستقلا. كما ميّز داخله قدرة الفرد على تنظيم رموز اللغة في تعبيره عن أفكاره، والآلية النفسية التي تساعده على تجسيد هذا التنظيم.[11] وانتهى إلى الجمع بين طرفي المعادلة اللغوية، أي بين الصورة السمعية والتصوّر الذهني أو الدال والمدلول في مفهوم العلامة اللغوية، التي من سماتها البارزة: الاعتباطية والخطية.[12] وقد فصّل في ذلك كلّه من منطلق أن دراسة اللغة يجب أن تدرس انطلاقا من صفتين أو بعدين أساسيين هما: التزامنية Synchronie والتزمّنية Diachronie.[13]

ما من شك أن كتاب "المحاضرات" قد حضى بما يستحقه من تقدير في الأوساط العلمية والفلسفية. لكن، هل كانت هذه الدراسة كافية لاستجلاء كل إحراجات اللغة؟ بالتأكيد لا، فالدليل على ذلك هو بقاء الكثير من زواياها مظلمة، خاصة ما تعلق بقيمة اللغة عند اعتبارها وسيطا بين الإنسان وعالمه، وسيط يُفترض به أن يكون رسول صدق بين أفكاره ومحسوساته. وهو أهم إحراج صادفه مؤسس الفينومينولوجيا إدموند هوسرل، عند محاولته الانتقال من التجربة الصامتة إلى تقويم مدركاته، أو إصدار الأحكام عليها. وهو الأمر الذي استدعى منه استجلاء ماهية اللغة بعيدا عن مفهومها التقليدي.

اللغة عند هوسرل: يُفهم من القاعدة الفينومينولوجية الأساسية: "إلى الأشياء ذاتها"، أنها تقصي كلّ شكل من أشكال الوساطة بين الذات والعالم الموضوعي، الذي من شأنه

[10] Ibid.

[11] Ibid., p30.

[12] الاعتباطية والخطية: أهم مبدأين يميزان العلامة اللغوية. فالاعتباطية تعبر عن الصلة التي تربط بين الدال والمدلول، كونها لا تربطها علاقة مبررة إلى على سبيل الاتفاق. أما صفة الخطية فهي نسبة لطبيعة الدال السمعية، والمعبرة عن امتداد في الزمن، ومتمتعا بصفات الزمن. فهو يمثل امتدادا، وهذا الامتداد يمكن قياسه فقط في بعد واحد، أي إنه يمثل خطا. أنظر: Ibid., p110 et suite.

[13] Ibid. p161-225.

أن يزوّدها بالمعارف الضرورية والصادقة. هذه الأشياء هي في واقع الأمر في صمت واستكانة وانفتاح، ودور الفينومينولوجي يكون في جعلها تتكلم، في أن يعطيها معنى. فكيف إذن للغة تفترض قيامها على الاعتباطية أن تلبي طلب الفينومينولوجي في تحصيل هذه المباشرية؟

يبدو أن مفهوم اللغة بشكله التقليدي لا يخدم الفينومينولوجيا في شيء، بل على العكس من ذلك فهو يقف حجرة عثرة في وجه تحققّها كعلم، يرتكز على تكّون المعنى بعيدا عن كل أحكام مسبقة، أو بالأحرى بعيدا عن كل لغة جاهزة تكون بالضرورة تعبيرا عن أفكارنا. ولكن التجربة تثبت عكس ذلك، بحيث أن الواقع يُظهر أن الكلمات تعبّر عن الفكر، وداخل الفكر تتواجد الكلمات. الكلمات لا تعلن عن الفكر كما يعلن الدخان عن النار. الفكر لا يوجد خارج الكلمات، بل يوجد في الكلمات وفي العالم. وما يجعلنا نعتقد في وجود أفكار لذاتها قبل كلّ عبارة، هو في الحقيقة تلك الأفكار المتقوّمة من قبل والمعبّر عنها من قبل، والتي يمكننا ترديدها على أنفسنا وبالتالي إيهامنا بحياة فكرية سابقة.[14]

بالنسبة لهوسرل فقد استوقفته هو بدوره مشكلة العلامة اللغوية منذ البداية، كونها مَكمن الإحراج العنيد في اللغة، لقيامها على مبدأ الاعتباطية؛ ففي الجزء الثاني من مؤلف "مباحث منطقية"، سعى هوسرل في بحثه عن ماهية اللغة إلى اقتراح قواعد لغة خالصة وكلية،[15] Grammaire pure من شأنها تثبيت أشكال الدلالات الضرورية لكلّ لغة، وتُمكّن من التفكير بكل وضوح، اللغات التجريبية وكأنها تحقيق مخالف للّغة الأساسية.[16] لكنه سرعان ما خلص -في نهاية التحليل ذاته- إلى نتيجة استحالة تحقيق

[14]Antoine Welo Okitawato Owandjalola, Idée de philosophie chez Maurice Merleau Ponty« introduction générale à la philosophie phénoménologique de Merleau-Ponty », Université de Genève, Suisse, 2004, p221.

[15]Edmund Husserl, Recherches logiques, tome2, 2°partie, tr :Hubert ELIE,PUF, Paris, France, 1962, p85 et suite.

[16]Maurice MERLEAU-PONTY, Signes, Éditions Gallimard, Paris, 1960, Édition numérique réalisée le 20 juin 2011 à Chicoutimi, Ville de Saguenay, Québec, p83.

مثل هذه القواعد؛ لأنه أدرك موقنا، أنه لا يمكن بحال التخلّص نهائيا من المعطيات النفسية القبلية للذات المتكلّمة، التي تنشأ داخل هذه اللغة، وبالتالي استحالة تأسيس ما هو موضوعي محض بالارتكاز على ما هو بالأساس ذاتي محض.[17] وعلى الرغم من وجود مثل هذه القناعة لدى هوسرل، يبدو أنه لم يستطع إهمال مسألة اللغة داخل فلسفته، لأنها مبحث ضروري وأكيد لكل معرفة ولكل فلسفة، وبالمقابل لم يتمكن من إدراجها ضمن الفلسفة الأولى،[18] التي ينادي بها كونها فلسفة بدأ وتأصيل وتبرير. وهو الأمر الذي جعله يتجاهل –وهذا ما اكتشفه مرلو-بونتي في مؤلف المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي- مسألة التأسيس لمثل هذه القواعد، حين اعتبر أن اللغة بإمكانها أن تشير إلى بعض الأشياء، وكأنها جسد للفكر، أو كعملية ضرورية من دونها تبقى الأفكار ظواهر خاصة لا تكتسب قيمة بيذاتية، وبالنهاية توجد مثاليا فقط.[19] وهو موقف يتماشي وتوجهه الداعي إلى تجاوز المفارقة، ولكن هذه المرّة – وعلى غير عادته- فهو يحاول أن يجعل اللّغة هي التي تنتج المعرفة، لا كما هو معروف لديه أن الذات هي التي تنتجها بعد تفعيل آليات المنهج الفينومينولوجي طبعا. وهذا التوجّه في حدّ ذاته هو دليل على أن هوسرل يتمسك بفهم لسانية دو سوسير، التي تجعل من اللغة وحدها موضوع الدراسة العلمية، وتهمل بالمقابل فعل الكلام.[20] وهو ما يمكن أن نتّخذه خيطا هاديا ونقطة بدأ أساسية لولوج فلسفة مرلو-بونتي المتعلقة باللغة.

اللغة عند مرلو-بونتي: على عكس ما ذهب إليه كلّ من دو سوسير وهوسرل، في اعتمادهم اللغة أساسا لكل درس لساني، وبالتالي السبيل الوحيد لفهم العلاقة بين الذات والعالم. فإن مرلو-بونتي كان مقتنعا منذ فينومينولوجيا الإدراك أن وصف

[17] أشار هوسرل إلى هذا المعنى في ملاحظة أضافها للطبعة الثانية من مباحث منطقية. أنظر:

Edmund Husserl, Recherches logiques, tome2, Ibid., p136.

[18] Edmund Husserl, Philosophie première2 « Théorie de la réduction phénoménologique », traduit par : ARION l. Kelkel, puf, Paris, France, 1972, p04.

[19] Maurice MERLEAU-PONTY, Signes, Ibid., p84.

[20] Ferdinand de SAUSSURE, Cours de linguistique générale, Op. cit, p30.

ظاهرة الكلام والفعل القصدي للدلالة، هو ما يتيح الإمكانية لتجاوز، وبصفة نهائية، المفارقة الكلاسيكية بين الذات والموضوع.[21] وقد بدأ تحليله بوصف ظاهرة امتلاك اللغة، التي فُهمت منذ البداية على أنها الوجود الفعلي للصور الشفهية، أي آثار تتركها فينا الكلمات المنطوقة أو المسموعة. وسواء كان مصدرها جسدي، أو نفسي لا شعوري، فإن هذا لا يختلف كثيرا باعتبار أن في كلتا الحالتين يبقى مفهوم اللغة نفسه، بحيث أنه يشير إلى عدم وجود ذات متكلمة. وسواء كانت المثيرات هي التي تطلق -بحسب قوانين الآلية العصبية- المنبهات القادرة على إصدار تمفصلات الكلمة، أو أن حالات الوعي تؤدي بفعل التداعيات المكتسبة إلى ظهور الصورة الكلامية المناسبة، ففي كلتا الحالتين يأخذ الكلام مكانا في دورةٍ من الظواهر المتميزة عن الذات؛ لا يوجد شخص يتكلم بل يوجد تدفق من الكلمات التي تحدث دون أي قصد بالكلام يتحكم فيها.[22]

1- أصالة مرلو-بونتي: تظهر أصالة مرلو-بونتي من خلال توجيه اهتمامه إلى فعل الكلام؛ أي إلى الذات المتكلمة، وبالتالي إلى عملية التواصل (دارة الكلام)[23] التي تتم بين الأفراد. فعملية التواصل تتم بين ذوات متكلمة، والمشكل المطروح ليس في فهم كلّ كلمة يمكن أن تقال داخل ذلك الحوار، إنما في فهم الرسالة التي أراد أحد الطرفين أن يبلّغها للآخر. فذلك الذي يسمع أو يقرأ يريد أن يفهم الذي يتكلم أو يكتب، يريد أن يفهم بالتحديد وبالجملة ما قيل له. وفي هذه الحالة لن تكون للكلمات قيمة في ذاتها داخل الخطاب، ولكن في المعنى أو الرسالة التي تؤلفها مجموع الكلمات الملفوظة.[24] وعليه يتّضح أن اللغة في كونها مدونة مستقلة عن الذات المتكلمة، لا تشكل حدثا بالنسبة لمرلو-بونتي، فهو يبني قضيته المتعلقة باللسان على نظرية المعنى، وتحديدا على تكوّن

[21] Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Op.cit, p221.

[22] Ibid., p222.

[23] Ferdinand de SAUSSURE, Cours de linguistique générale, Ibid., p26.

[24] Antoine Welo Okitawato Owandjalola, Idée de philosophie chez Maurice Merleau Ponty, Op, cit, p235.

المعنى في الأشياء المدركة أو المعيشة.[25] ومن هنا تفرض علينا بعض الأسئلة نفسها؛ هل هذا يعني أن الأشياء المدركة حاملة لمعناها في ذاتها، ويكون دور اللسان هو حمل العبارة على انفتاح الدلالة على الشيء في ذاته؟

المرجّح على الأقل أنّ مرلو-بونتي قد أمل في أن تتحقق مثل هذه الإمكانية، باعتبار أنه قبل كل شيء فينومينولوجي، وهو لا يشذّ عن القاعدة الأساسية للفينومينولوجيا: "إلى الأشياء ذاتها"، كونها قبل كل شيء سعي لإعادة الصلة الساذجة مع أشياء العالم. فالفيلسوف يتواصل مع العالم، وهذا التواصل هو من صنف المعاينة، وهذا ليس معناه أن يبقى رؤية محضة، فهناك ضرورة التوجه إلى الأشياء ذاتها، ولكن اندهاشه في فعل النظر سيجعل منه هو أيضا شيئا من بين تلك الأشياء. رائي محض سيتحوّل إلى شيء منظور من طرف كارثة أنطولوجية.[26] ومن أجل ذلك فهو يستجوب ما يستدعي الفرق واللغة. فإذا كانت الفلسفة عبارة عن اتصال ومصادفة، وإذا كانت تسعى إلى تحقيق العودة إلى الأشياء ذاتها، فهي لن تكون في حاجة للبحث عن بديل لفظي للعالم المرئي. لكن، إذا كانت استفهامية، فهي لن تكون بحاجة أيضا لتجاوز اللغة للبحث عن مصادفة دون لغة وبدون فرق. فاللغة في حقيقة الأمر ليست عَدُوّة المصادفة، التي يبحث عنها الفيلسوف. فالفيلسوف، فيلسوفا بالقدر الذي يستطيع من خلاله استبدال ذلك الصمت الذي يسكنه بالكلمات.[27]

الأكيد إذا أن مرلو-بونتي يستبعد طريقة التعبير المألوفة لوصف هذه التجربة الخاصة، التي تتوسط بين المصادفة واللغة؛ فلغة المصادفة التي يقصدها ليست التقاط للأشياء في نطاق اللسان، ولا هي فيض للّسان لحساب المصادفة. هذان النمطان للعلاقة بين اللسان والأشياء هما في الآن نفسه متناقضان ومتعاضدان، فهما

[25] Ibid., p238.

[26] Maurice Merleau-Ponty, Le visible et l'invisible, éd : Gallimard, 1964, p113.

[27] Ibid., p164.

يستندان على مسلّمة أنه لا يمكن لهما الاجتماع إلا إذا استسلم أحدهما للآخر، بأن يتحوّل القول إلى شيء، أو أن الأشياء تُسكِت القول عن طريق تحويل ثرثرته إلى صمتها. وهنا يُوضع الفيلسوف أمام مفارقة، فهو إما أن يترك الأشياء لصالح اللغة، أو يستغني عن اللغة لصالح الأشياء. ومرلو-بونتي يرفض هذه المفارقة، فهو يريد أن يُنطق الأشياء ذاتها أو أن يقود هذه الأشياء من عمق صمتها إلى التعبير.[28]

من أجل ذلك نجد أن مرلو-بونتي ومن موقف الفينومينولوجي، يحرص على الجمع بين العلم الموضوعي للسان وفينومينولوجيا الكلام لكي يكون هنالك اتصال، وبالتالي يكون هنالك جدال.[29] عبر هذا الجمع فقط يكون بإمكان وجهة النظر الذاتية أن تُغلّف وجهة النظر الموضوعية؛ التزامنية تغلّف التزمّنية. ماض اللسان يصبح حاضره.[30] ومن خلال العودة إلى كلام الذات المتكلمة فإنه يريد التأسيس لفلسفة للتواصل، لأنها تدرس باهتمام فعل التخاطب بين الذوات. فحتى لو كان لكل شخص أسلوبه الخاص في الكلام، الذي يرتبط بمعيشه النفسي، فإن هذا الجانب لا ينفصل عن جانب آخر لا يقل أهمية، ألا وهو الذاتية المتبادلة[31]. فالكلمات لا يمكن لها أن تكون حِصنا للفكر، كما أن الفكر لا يبحث عن العبارة إلاّ إذا كان الكلام في ذاته نصّ مفهوم، وامتلك قوّة الدلالة الخاصة به. يجب أن تتوقف الكلمة والكلام، بكيفية أو بأخرى عن الإشارة للشيء أو الفكر، لكي تصير الحضور الفعلي لهذا الفكر في العالم المحسوس، وليس فقط مجرد كِساء، وإنما شعاره أو جسده.[32]

---

[28] Pascal Dupond, Le langage « La question du langage dans le visible et l'invisible », Philopsis : Revue numérique http://www.philopsis.fr. p02.

[29] Maurice MERLEAU-PONTY, Signes, Op. cit, p85.

[30] Ibid., p86.

[31] محمد بن سباع، تحولات الفينومينولوجيا المعاصرة "مرلو-بونتي في مناظرة هوسرل وهايدغر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015 ، ص226.

[32] Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Op.cit, p230.

بمثل هذا الكلام نطق قبله مارتن هيدغر حينما تحدّث عن نسيان الوجود، وسعى إلى تحطيم الميتافيزيقا الغربية والعودة إلى لحظة التأسيس الأولى، أي إلى الإغريق الأوائل (هيراقليطس وبارميندس). وصدق من شبّه فلسفة مرلو-بونتي بفلسفة سقراط، التي عملت على توليد المعرفة من عقول البشر[33] عبر تفكيك المفاهيم الكبرى والأساسية المتوارثة عبر اللغة. فاللغة بالنسبة لمرلو-بونتي تمثل السبب المباشر لنسيان الوجود المتحقق من لحم ودم. وهو يعتبر أنه بمجرد أن تتثبّت اللغة فإنه سيكون فقدان للمعنى ونسيان. والطريقة الوحيدة لتجنب هذا المرض يكون باستعادة الوعي بأن اللغة، وحتى في شكلها المكتوب تنشأ دائما من دفئ حياة.[34] ومن أجل ذلك فهو يعرّف اللغة على أنها ليست فقط تجميع للدلالات المثبّتة والمكتسبة، بل هي تعبّر عن تكوين أنطولوجي ontogenèse تنتمي إليه هي ذاتها.[35] وبتعريفه للّغة كسلوك، فإن مرلو-بونتي قد بيّن أن اللغة والتجربة الإدراكية في تلازم دائم، فلا يمكن الحديث عن لغة محضة مستقلة عن التجربة، ولا عن تجربة إدراكية مستقلة عن اللغة. وهو الأمر الذي جعله يميّز بين نوعين من الكلام: "كلام متكلِّم وكلام متكلَّم parole parlante et parole parlée"[36]؛ في الأول تكون القصدية الدلالية في حالتها الناشئة naissant. هذا الكلام هو الوحيد الذي يكون موصولا مباشرة مع معناه، وهو وحده القادر على توليد معنى آخر جديد، ولهذا فإن مرلو-بونتي يعتبر هذا الصنف من الكلام هو الكلام الأصلي Authantique، الكلام الحي،[37] الذي بإمكانه أن يُنشأ المعنى للمرّة الأولى، مقابل ما يصفه بالتعبير الثاني؛ أي

[33]Marc Lessard, le silence et la vie du langage chez Merleau-Ponty, Revue Phares, Université Laval, p74.

[34]Maurice MERLEAU-PONTY, Signes, Ibid., p63.

[35] Maurice Merleau-Ponty, Le visible et l'invisible, Op, cit, p137.

[36] Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Op.cit, p247.

[37] Maurice MERLEAU-PONTY, Signes, Ibid., p87.

الكلام حول الكلام، الذي يصنع المعتاد من اللغة التجريبية. وهو يَعتبر أنّ الأولى هي المطابِقة للفكر.[38]

2- البعد الأنطولوجي للكلام: إن ما جعل مرلو-بونتي يضع هذا التمييز هو أن الكلام المتكلَّم له بُعد أنطولوجي، بحيث أن معنى الوجود لا يرتبط فقط مع المفهوم اصطلاحيا، إنما يسكنه،[39] تماما كما لا يمكننا القول أن جسدنا موجود في المكان وفي الزمان، بل يجب القول بأنه يسكن المكان والزمان.[40] فالكلام المتكلَّم هو الكلام الذي يتّحدُ بالضرورة مع المعنى الوجودي وليس مع المعنى الاصطلاحي. وربما هذا ما دفع بالكثير من المعلقين على فلسفة مرلو-بونتي إلى التركيز على الطابع الجسدي للكلام المتكلّم، باعتمادهم في ذلك على وصف "الحركي". فهم يركّزون بالإجماع تقريبا على العلاقة بين الكلام والجسد، بكيفية توحي بأنه تعبير جسدي خالص تماما مثل أي حركة أو إيماءة.[41]

لكن، حتى وإن كان هذا فعلا ما يقصده مرلو-بونتي من فلسفته بشكل عام، فإن المقصود من الحديث عن الكلام المتكلَّم له أصالته، فهو يعلم بأننا نعيش في عالم قد تأسست كلماته من قبل، وأنه لنا داخل أنفسنا معنى لكل هذه الكلمات التافهة، فهي لا تتطلب منا إلاّ فكرا ثانويا للتعبير، ولا تستدعي من السامع إلا مثله من الجهد لفهمنا. فعالم اللسان والبيذاتي لم يعد يدهشنا لأننا لم نعد نفرّق بينه وبين العالم المادي. وبداخل العالم المعبّر عنه مسبقا تحدث أفكارنا. وبهذا فإننا نفقد وعينا أمام ما هو بصدد الحدوث داخل العبارة وفي الحوار، سواء بالنسبة للطفل الذي يتعلّم الكلام، أو عند الكاتب الذي يؤلف ويفكر للمرّة الأولى، وفي النهاية لدى كلّ هؤلاء الذين يُحوّلون صمتا ما إلى كلام. فالواضح أن الكلام المتقوّم كما نجده في الحياة اليومية، يفترض

[38] Ibid., p226.

[39] Ibid., p231.

[40] Ibid., p181.

[41] Keiichi Yahata. La problématique de l'expression dans la philosophie de Maurice Merleau-Ponty, Op., cit, p21.

تحقيق الخطوة الحاسمة للتعبير. نظرتنا حول الإنسان يقول مرلو-بونتي: "ستبقى سطحية ما دمنا لم نرتد إلى هذا الأصل، ما لم نسترجع من تحت ضجيج الكلام، الصمت الأصلي، ما لم نصف الحركة التي تُنهي هذا الصمت، فالكلام حركة ودلالتها العالم".[42]

يتّخذ مرلو-بونتي من الصمت سبيلا للوصول إلى ما يسميه التكوين الأنطولوجي للغة، هذا التكوين يمكن استجلاء ماهيته وموطنه عندما يتم الكشف عن الرابط الوجودي، الذي يجمع بين الجسد واللغة. إن الصمت هنا يوازي في إجرائيته مهمة الردّ الفينومينولوجي، الذي يجعل الفيلسوف يقيم داخل التجربة الصامتة للوعي، ومرلو-بونتي يلجأ إلى الصمت لأنه يريد أن يرى ويعبّر عن العالم الصامت للأشياء. فهو وككل فينومينولوجي، يجد مهمة الفيلسوف في "حمل التجربة الصامتة للتعبير عن معناها الأصلي".[43] فالأصل بالنسبة إليه يكمن في وصف الحركة الأولى التي تقطع الصمت، والأكيد أن هذه الحركة التي تقطع الصمت البدئي تشير إلى الكلام المتكلِّم، فهذا النوع من الكلام البدئي هو الذي من شأنه أن ينقل الذات من العالم الصامت إلى العالم المتكلّم، وذلك بكسر الصمت البدئي primordial الذي يتشكل منه مجال هذا العالم ذاته. إن عملية كسر حاجز الصمت هذه لا تتم كما يمكن فهمها عن طريق ضجيج الكلام المتكلَّم، لكن فقط عبر ظاهرة الكلام المتكلِّم.

3- الكلام المتكلِّم: لكسر هذا الغموض الظاهر في فكر مرلو-بونتي يجب فهم المعنى الحقيقي الذي يقصده من مفهوم الكلام المتكلِّم، فهذا النوع من الكلام لا يشتمل -كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن- على الجانب الصوتي son الذي يمثل عنصرا مقوّما للكلام، ولكن وتحديدا هذا ما ينفيه مرلو-بونتي عن ظاهرة الكلام التكلِّم؛ فهو ليس بحاجة إلى إحداث صوت (تردّدات ميكانيكية للهواء)، لأنّ الأصل هو أنه ليس هنالك إلاّ صمت

[42] Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Ibid., p233.

[43] Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Ibid., p21.

مزعوم.[44] فما يجعلنا نعتقد في وجود فكر لذاته سابق عن التعبير، هي في الحقيقة تلك الأفكار المتقوّمة من قبل والمعبّر عنها من قبل، والتي نستطيع تذكّرها في صمت، وعن طريقها نتوهم في وجود حياة داخلية. لكن في الحقيقة هذا الصمت المزعوم، صاخب بالكلام، هذه الحياة الداخلية هي لغة داخلية. لا يوجد فكر محض لأن الفكر المحض يرتد إلى فراغ للوعي. وكل قصدية دلالية جديدة لا تتعرف على ذاتها إلاّ استنادا إلى دلالات أخرى موجودة سلفا، نتيجة لأفعال تعبير سابقة. والدلالات الموجودة تتشابك فجأة تحت قانون مجهول، وهكذا ينشأ كيان ثقافي جديد. فالفكر والحديث يتقوّمان في الآن معا عندما تتجنّد خبرتنا الثقافية في خدمة هذا القانون المجهول، تماما كما يتأهب جسدنا لحركة جديدة في خبرة العادة. فالكلام حركة حقيقية وهو يمتلك معناه كما تمتلك الحركة معناها.[45] إن الكلام بهذا المعنى ليس علامة خارجية لفكر داخلي كما هو الحال عند دو سوسير، بل هي الفكر ذاته، الكلام الذي يعتبره مرلو-بونتي أصليا هو ذلك الكلام الذي يتّحد مع الفكر ومع المعنى ذاته.

انطلاقا من هذا التصور الجديد، الذي يعطيه مرلو-بونتي للعلامة اللغوية كونها أصبحت حركة للجسد، بعدما كانت مطابَقة بين الوجود والفكر، فهي قد أصبحت تحمل بالفعل معنى الإشارة حرفيّا، التي يُقصد بها التلويح لشخص عند مناداته. وبالتالي فهي تفتح أمام قصدية الفيلسوف مجال إمكان الوجود، واكتشاف أن الكلمات هي حركات وليس مفاهيم. وأكثر من ذلك يجب فهم الحركات على أنها ارتسامات esquisses، أي منشأ الدلالة التي لم تنتهي يوما بتثبيت معنى، أي أنها تبحث عن نفسها في اللحظة التي تفرّ فيها.[46]

[44]Keiichi Yahata. La problématique de l'expression dans la philosophie de Maurice Merleau-Ponty, Ibid., p23.

[45]Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Ibid., p232.

[46] Philippe Touchet, Le langage et la parole, Op. cit, p03.

خاتمة:

وعلى هذا الأساس فإن فلسفة مرلو-بونتي الأخيرة (المرئي واللامرئي خاصة)، التي تدّعي لنفسها أنها لغة المصادفة؛ والتي من شأنها أن تُنطق الأشياء ذاتها؛ تنفي ضمنيا أن يكون الفيلسوف هو منظّم هذه اللغة، كأن تكون جملة (مجموعة) من كلمات يتحكم هو في ترتيبها. فهو ينفي على اللغة الطابع المنشئ activiste للمعنى، الذي يجعلنا لا نجد في الأشياء إلاّ ما وضعنا فيها، لأن تصوّرا كهذا سيحوِّل إلى لا معقولية، ليس فقط الحوار الحقيقي، إنما وبالأساس كل نطاق الرمزية.[47] علما أن كلّ تأملات مرلو-بونتي حول اللغة هي فقط للتوصل إلى إجابة حول إمكانية وجود حوار حقيقي بين البشر، أي البحث عن الوضعية التي يمكن أن يكون فيها الحوار المتبادل ليس فقط مجرد انبعاث للدلالة التي يمتلكها الفرد من قبل، ولكن اختراع مشترك للمعنى وللحقيقة.[48] فالكلام الذي يبحث عنه مرلو-بونتي هو ذلك "الكلام الفاتح parole conquérante"،[49] الذي يستطيع تأسيس لغة. يجب أن يُعلّم هو ذاته معناه، للذي يتكلم وللذي يسمع، فلا يكفي أن يشير إلى معنى معلوم مسبقا من طرف هذا وذلك، بل يجب أن يجعله يوجد؛ يجب أن يتجاوز وجوده كإشارة لكي يتحوّل إلى معنى.[50]

لقد حرص مرلو-بونتي في فينومينولوجيا الإدراك على توضيح القرابة بين الإشارة الجسدية والإشارة اللغوية، لأن الإشارة الجسدية في نظره ليست فقط وضع الجسد في حالة حركة، فهو بمثابة أول فعل رمزي،[51] إنها قوّة منفتحة ومفتوحة للعني signifier، لأنه يجد أن فهم الآخر يتم عبر الجسد، كما أنه بالجسد يتم إدراك الأشياء.[52] فهم

[47]Pascal Dupond, Le langage « La question du langage dans le visible et l'invisible », Op. cit, p06.

[48]Ibid.

[49]Maurice MERLEAU-PONTY, La prose du monde « texte établi et présenté par Claude Lefort », Éditions Gallimard, Paris, France, 1969, p148.

[50]Ibid., p148.

[51]Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Ibid., p166.

[52]Ibid., p235.

الإشارة بهذه الكيفية يجعل منها تمتزج مع بنية العالم التي ترسمها. وبدورها الإشارة اللغوية مثل باقي الإشارات ترسم معناها بنفسها. فالعلاقة بين الإشارة الجسدية ومعناها توضّح العلاقة بين الإشارة اللغوية ومعناها أيضا. لأن معنى الإشارة يسكن داخلها؛ فأنا لا أدرك الغضب أو الخطر كحدث نفسي مخفي خلف الإشارة، بل أقرأ الغضب داخل الإشارة، فالإشارة لا تجعلني أفكر الغضب، فهي الغضب ذاته.[53]

- المصادر والمراجع

- Maurice MERLEAU-PONTY, Phénoménologie de la perception, Gallimard, Paris, 1945, Édition numérique réalisée le 3 avril 2015 à Chicoutimi, Ville de Saguenay, Québec.

- Maurice MERLEAU-PONTY, Signes, Éditions Gallimard, Paris, 1960, Édition numérique réalisée le 20 juin 2011 à Chicoutimi, Ville de Saguenay, Québec.

- Maurice Merleau-Ponty, Le visible et l'invisible, éd : Gallimard, 1964.

- Maurice MERLEAU-PONTY, La prose du monde « texte établi et présenté par Claude Lefort », Éditions Gallimard, Paris, France, 1969.

- Edmund HUSSERL, Méditations cartésiennes « introduction à la phénoménologie », tr : Gabrielle PEIFFER et Emmanuel LIVINAS, librairie philosophique J.Vrin, 1996.

- Edmund Husserl, Idées directrices pour une phénoménologie, traduit par Paul Ricœur, Gallimard, 1995.

- Edmund Husserl, Recherches logiques, tome2, 2°partie, tr :Hubert ELIE,PUF, Paris, France, 1962.

- Edmund Husserl, Philosophie première2 « Théorie de la réduction phénoménologique », traduit par : ARION l. Kelkel, puf, Paris, France, 1972.

- Ferdinand de SAUSSURE, Cours de linguistique générale, présenté par Dalila Morsly, éd : ENAG, 3eme édition, Algérie, 2004.

[53] Ibid., p233.

- Pascal Dupond, Le langage « La question du langage dans le visible et l'invisible », Philopsis : Revue numérique http://www.philopsis.fr.

- Marc Lessard, le silence et la vie du langage chez Merleau-Ponty, Revue Phares, Université Laval.

- Keiichi Yahata. La problématique de l'expression dans la philosophie de Maurice Merleau-Ponty. Thèse de doctorat en Philosophie, Université de Toulouse le Mirail - Toulouse II, France, 2012, p17. En ligne https://tel.archives-ouvertes.fr.

- Antoine Welo Okitawato Owandjalola, Idée de philosophie chez Maurice Merleau Ponty« introduction générale à la philosophie phénoménologique de Merleau-Ponty », Université de Genève, Suisse, 2004.

- إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، تر: فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

- محمد بن سباع، تحولات الفينومينولوجيا المعاصرة "مرلو-بونتي في مناظرة هوسرل وهايدغر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015.